مع القرآن العظيم

الجزء الرابع

للإمام ابن كثير

المتوفى عام ٧٧٤ هـ

عرض وتلخيص

محمد لبيب النجيحي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

جميع دار الطباعة المصرية الحديثة
شارع محمد علي دوب العتبة غرة ١ مصر

مع القرآن العظيم

الجزء الرابع

للإمام ابن كثير

المتوفى عام ٧٧٤ هـ

عرض وتلخيص

مصطفى البوشي

جميع الحقوق محفوظة المؤلف

الطبعة الأولى

طبع دار الطباعة المصرية الحديثة
شارع محمد علي درب العنبة غمرة ١ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام فانه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا .

وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصينى كان له إبنان نصرانيان . وكان هو رجلا مسلما فقال للنبى ﷺ ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فيه ذلك .

* * *

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل فى دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية وقال آخرون بل هى منسوخة بآية القتال وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول فى الدين الحنيف دين الاسلام فإذا أبى أحد منهم الدخول ولم ينقد له أو يبذل الجزية قوتل حتى يقتل .. وهذا معناه الاكراه قال الله تعالى (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين)

وفى الصحيح « عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل » يعنى الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الاسلام فى الوثاق والإغلال والقيود والأكبال ثم من بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة .

* * *

وأما الحديث الذى روى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل « أسلم » قال إنى أجدنى كارها قال « وإن كنت كارها » فإنه ثلاثى صحيح ولكن ليس من هذا القبيل فانه لم يكرهه النبى على الإسلام بل دعاه اليه فأخبره أن نفسه ليست قابلة له بل هى كارهة فقال له أسلم وإن كنت كارها فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص .

وقوله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) أى من خلع الأنداد والأوثان ومايدعو إليه الشيطان من عبادة كل مايعبد من دون الله ، ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم وقال عمر رضى الله عنه أن الجبت السحر والطاغوت الشيطان وأن الشجاعة والجبن غرائز تكون فى الرجال يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ويفر الجبان من أمه ، وإن كرم المرء دينه ، وحسبه خلقه ، وإن كان فارسياً أو نبطياً .

ومعنى قوله فى الطاغوت إنه الشيطان قوى جداً ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها .

* * *

وقوله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى فقد استمسك من الدين بأقوى سبب وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنفصم هى فى نفسها محكمة مبرمة قوية ورابطها قوى شديد ولهذا قال : (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) وعن أنس بن مالك : العروة الوثقى القرآن ، وقال غيره هو الحب فى الله والبغض فى الله .

وكل هذه أقوال صحيحة ولا تنافى بينها .

* * *

قال محمد بن قيس بن عبادة .

كنت فى المسجد فجاء رجل فى وجهه أثر من خشوع فصلى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم هذا رجل من أهل الجنة ، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته فلما استأنس قلت له إن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا ، قال سبحان الله ،

ما ينبغي لأحد أن يقول مالا يعلم وسأحدثك لم : إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه ، رأيت كأني في روضة خضراء ، وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء في أعلاه عروة، فقيل لي إصعد عليه، فقلت لا أستطيع فجاءني منصف ، فرفع ثيابي من خلفي فقال اصعد ، فصعدت حتى أخذت بالعروة فقال استمسك بالعروة فاستيقظت وإنها لفي يدي ، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه فقال « أما الروضة فروضة الإسلام ، وأما العمود فعمود الإسلام ، وأما العروة فهي العروة الوثقى أنت على الإسلام حتى تموت »

* * *

وفي سياق آخر تحدث رافع بن خرشة بن الحر قال : قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة في مسجد النبي ﷺ فجاء شيخ يتوكأ على عصا له فقال القوم : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقلت له : قال بعض القوم كذا كذا ، فقال الجنة لله يدخلها من يشاء وإني رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا كأن رجلا أتاني فقال انطلق فذهبت معه فسلك بي منهجا عظيما فعرضت لي طريق عن يساري فأردت أن أسلكها فقال : إنك لست من أهلها ثم عرضت لي طريق عن يميني فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلق فأخذ بيدي فدحا بي ، فإذا أنا على ذروته فلم أتقار ولم أتماسك ، فإذا عمود حديد في ذروته حلقة من ذهب فأخذ بيدي فدحا بي حتى أخذت بالعروة فقال استمسك فقلت نعم ، فضرب العمود برجله فاستمسك بالعروة فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال « رأيت خيرا أما المنهج العظيم فالمحشر ، وأما الطريق التي عرضت عن يسارك فطريق أهل النار ، ولست من أهلها ، وأما الطريق التي عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة ، وأما الجبل الزلق فمنزل الشهداء ، وأما العروة التي استمسكت بها فعروة الإسلام فاستمسك بها حتى تموت

* * *

الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

إخبار من الله تعالى أنه يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير ، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن الطريق الحق إلى الكفر والافك (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وقال تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال تعالى (عن اليمين وعن الشمال) إلى غير ذلك من الآيات التى فى لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتشعبه قال أيوب بن خالد ، يبعث أهل الاهواء فمن كان هواه الإيمان كانت فتلته بيضاء مضيئة ومن كان هواه الكفر كانت فتلته سوداء مظلمة . ثم قرأ (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

* * *

ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين .

هذا الذى حاج ابراهيم فى ربه هو ملك بابل نمرود بن كنعان ومعنى قوله تعالى (ألم تر) أى يا محمد (إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) أى وجود ربه وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه (ما علمت لكم من إله غيرى) وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته فى الملك وذلك أنه يقال أنه مكث أربعمائة سنة فى ملكه ولهذا قال (أتاه الله الملك) وكان قد

طلب من ابراهيم دليلا على وجود الرب الذى يدعوه اليه فقال ابراهيم (رب الذى يحيى ويميت) أى إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها وهذا دليل على وجود الفاعل لأنها لم تحدث بنفسها فلابد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لاشريك له . فعند ذلك قال المحاج وهو النمرود (أنا أحيى وأميت) وذلك أتى أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة

فأراد أن يدعى لنفسه عناداً ومكابرة أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذى يحيى ويميت كما اقتدى به فرعون فى قوله (ماعلمت لكم من إله غيرى) ولهذا قال له ابراهيم لما ادعى هذه المكابرة (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى إذا كنت كما تدعى أنك تحيى وتميت فالذى يحيى ويميت يمكنه أن يتصرف فى الوجود فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما أدعيت تحيى وتميت فأت بها من المغرب فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لايقدر على المكابرة فى هذا المقام بهت أى أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة قال الله تعالى (والله لايهدى القوم الظالمين) أى لايلهمهم حجة ولا برهانا بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول الى المقام الثانى انتقال من دليل الى أوضح منه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى ، ويبين بطلان ما أدعاه نمرود فى الأول والثانى .

* * *

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار ، ولم يكن اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة .

* * *

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ

بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه
وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها
ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير

تقدم قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) وهو فى قوة قوله هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه ولهذا عطف عليه بقوله (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) اختلفوا فى المار من هو .. ؟ فقال بعضهم هو عزير ، وقال آخرون هو أرميا بن حلقيا الذى قيل أنه اسم الخضر عليه السلام

وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها (وهى خاوية) أى ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار

وقوله (على عروشها) أى ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال (أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه قال الله تعالى (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) قيل وعمرت البلدة بعد مضى سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته (قال) الله له بواسطة الملك (كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم) وقيل ذلك لأنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال (أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) وذلك أنه وجد فاكهة كانت معه لم يتغير منها شيء ولم تتعفن (وانظر إلى حمارك) أى كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر (ولنجعلك آية للناس) دليل على المعاد (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) أى نرفعها فيركب بعضها على بعض وروى أن رسول الله ﷺ قرأ (كيف ننشزها) بالزاى وقرىء (ننشرها) أى نحييها (ثم نكسوها لحما) قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره يميناً ويساراً فنظر إليها وهى تلوح من بياضها فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركب كل عظم فى موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً وبعث الله ملكا فنفخ فى منخرى الحمار فنهق وذلك كله بمرأى من العزير ، فعند ذلك لما تبين له

هذا كله (قال أعلم أن الله على كل شى قدير) أى أنا عالم بهذا وقد رأيته عيانا فأنا أعلم أهل زمانى بذلك وقرأ آخرون « قال إعلم » على أنه أمر له بالعلم

« ☆ »

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

ذكروا السؤال إبراهيم عليه السلام أسبابا منها لما قال لنمرود (ربى الذى يحيى ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)

وفى الحديث الشريف « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) ويقول إسماعيل بن يحيى المزنى فى تفسير ذلك أن النبى لم يشك ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا فى أنه هل يجيبهما إلى ما سألا

وفى ذلك إعلام على أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال . .

وقوله (قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك) اختلف المفسرون فى هذه الأربعة ما هى وإن كان لا طائل تحت تعيينها إذ لو كان فى ذلك مهم لنص عليه القرآن

وفى تفسير ابن عباس (فصرهن إليك) أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم نتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءا وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم الى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعيا ليكون أبلغ له فى الرؤية

التى سألها وجعل كل طائر يجىء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه فإذا قدم اليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ولهذا قال (واعلم أن الله عزيز حكيم) أى عزيز لا يغلبه شىء ولا يمتنع عن شىء وماشاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شىء حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره

وفى قوله تعالى (ولكن ليطمئن قلبى) قال ابن عباس . ما فى القرآن آية أرجى عندى منها ، وقال سعيد بن المسيب ، اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا ونحن شيبة . فقال أحدهما لصاحبه أى آية فى كتاب الله أرجى عندك لهذه الآية ؟ فقال عبد الله بن عمرو قول الله تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) فقال ابن عباس أما إن كنت تقول هذا فأنا أقول أرجى منها لهذه الآية قول إبراهيم (رب أرنى كيف تحيى الموتى؟ قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)

* * *

مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فقال (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) وهو الإنفاق فى الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك

وقال بن عباس الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما الى سبعمائة ضعف ولهذا قال تعالى (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه اشارة الى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف . قال ابن عطيف دخلنا على أبى عبيدة نعوده من شكوى أصابه بجنبه وامرأته قاعدة عند رأسه قلنا كيف بات أبو عبيده ؟ قالت : والله لقد بات بأجر ، قال أبو عبيدة ما بت بأجر وكان مقبلا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه وقال ألا تسألونى عما قلت ! قالوا ما أعجبنا ماقلت فنسألك عنه ، قال سمعت رسول الله ﷺ

يقول « من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فسبعمائة . ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضا أو ماز أذى فالحسنة بعشر أمثالها . والصوم جنة مالم يخرقها ومن ابتلاه الله عز وجل ببلاء فى جسده فهو له حطة »

* * *

وفى حديث آخر عن ابن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله فقال رسول الله ﷺ « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة » وعن ابن مسعود أيضا أن رسول الله قال « إن الله جعل حسنة ابن آدم إلى عشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف إلا الصوم والصوم لى وأنا أجزى به وللصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »

* * *

وفى رواية عن ابن عمر لما نزلت هذه الآية (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قال النبى ﷺ « رب زد أمتى » قال فأنزل الله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) « قال رب زد أمتى » قال فأنزل الله (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

« • »

وقوله فى الآية (والله يضاعف لمن يشاء) أى بحسب إخلاصه فى عمله (والله واسع عليم) أى فضله واسع كثيرا أكثر من خلقه عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبحمده

« • »

الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب

فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين .

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون فى سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منا على من أعطوه فلا يمنون به على أحد ولا يمنون به لا بقول ولا فعل

وقوله (ولا أذى) أى لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحيطون به ما سلف من الإحسان ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال (لهم أجرهم عند ربهم) أى ثوابهم على الله لا على أحد سواه (ولا خوف عليهم) فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة (ولا هم يحزنون) على ما خلفوه من الأولاد ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك .

ثم قال تعالى (قول معروف) أى كلمة طيبة ودعاء لمسلم (ومغفرة) أى عفو وغفر عن ظلم قولى أو فعلى (خير من صدقة يتبعها أذى) قال ابن دينار بلغنا أن رسول الله ﷺ قال ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف ألم تسمع قوله (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى) عن خلقه (حليم) يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة ففى الحديث « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » وفى حديث آخر « لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر »

والصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى مما ينى ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ولذلك قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) كما تبطل صدقة من راءى بها الناس فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس أو ليقال إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ولهذا قال عطفا على من تبطل صدقته (كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) . أما الذى يتبع نفقته منا أو أذى فقال عنه (فمثله كمثل صفوان) وهو الصخر الأملس (عليه تراب فأصابه وابل) وهو المطر الشديد (فتركه صلدا)

أى فترك الوابل ذلك الصخر يابسا لاشيء عليه من ذلك التراب وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله ولهذا قال (لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين) .

« * »

ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير .

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم فى ذلك (وتثبيتا من أنفسهم) أى وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ونظير هذا فى معنى قوله عليه السلام فى الحديث الصحيح المتفق على صحته « من صام رمضان إيمانا واحتسابا » أى يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه قال الشعبى : (وتثبيتاً من أنفسهم) أى تصديقاً ويقينا .

وقوله (كمثل جنة بربوة) أى كمثل بستان بربوة وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض وزاد بعضهم أنه تجرى فيه الأنهار (أصابها وابل) وهو المطر الشديد كما تقدم فآتت (أكلها) أى ثمرتها (ضعفين) بالنسبة إلى غيرها من الجنان) فإن لم يصبها وابل فطل) وهو الرذاذ اللين من المطر أى أن هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً لأنها إن لم يصبها وابل فطل وأيا ما كان فهو كفايتها ، ولذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه ولهذا قال (والله بما تعملون بصير) أى لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء

* * *

أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها

إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون

قال البخارى عند تفسير هذه الآية : قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب النبى ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت ! (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب)قالوا الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أولا نعلم ، فقال ابن عباس ، فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين فقال عمر : يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك فقال ابن عباس : ضربت مثلا بعمل ، قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس لرجل غنى يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق فى أعماله .

وفى ذلك كفاية فى تفسير هذه الآية وتبيين ما فيها من المثـــل بعمل من أحسن العمل أولا ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات والعياذ بالله فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصـــالح واحتاج إلى شىء من الأول فى أضيق الأحوال فلم يحصل منه شىء وخانه أحوج ما كان إليه ولهذا قال تعالى (أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار) وهو الريح الشديد (فيه نار فاحترقت) أى أحرق ثمارها وأباد أشجارها فأى حال يكون حاله ؟ .

« • »

وعن ابن عباس قال ، ضرب الله مثلا حسنا وكل أمثاله حسن قال (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات) وقد صنع هذا البستان فى شيبته (وأصابه الكبر) وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه ، كذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رد إلى الله عز وجل ليس له خير ولا هو قدم لنفسه شيئاً يعود عليه كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجره وهو أفقر ما يكون إليه كما حرم هذا جنته عندما كان أحوج ما كان إليها عند كبره وضعف ذريتـــه .

وروى أن رسول الله (ﷺ) كان يقول فى دعائه « اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبر سنى وانقضاء عمرى » ولهذا قال تعالى (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) أى تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعانى وتنزلونها على المراد منها كما قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم * يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق والمراد به الصدقة ههنا من طيبات مارزقهم من الأموال التي اكتسبوها كالتجارة مثلا بتيسيره إياها لهم ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض وأمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ولهذا قال : (ولا تيمموا الخبيث أي تقصدوا الخبيث (منه تنفقون ولستم بآخذيه) أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغامضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون وقيل معناه (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه . وفي الحديث « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وأن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قالوا : وما بوائقه يا نبي الله ؟ قال : غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

* * *

وقيل أن هذه الآية نزلت فى الأنصار . إذكانت الأنصار أيام جذاذ النخل تخرج من حيطانها البسر معلقا على حبل بين أسطوانتين فى مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) . .

وعن البراء قال فى هذه الآية : نزلت فينا ، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتى الرجل بالقنو فيعلقه فى المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذاجاع جاء فضربه بعصاه فسقط منه البسر والتمر فيأكل وكان أناس لا يرغبون فى الخير يأتى بالقنو الحشف والشيص فيعلقه فنزلت (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) قال لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على أغماض وحياء فكنا بعد ذلك يجىء الرجل منا بصالح ما عنده .

* * *

إن كسب المسلم لا يكون خبيثا لذلك وجب أن لا تخبث صدقته فلا يصدق بالحشف والدرهم الزيف ومالا خير فيه ، قالت عائشة رضى الله عنها أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت : يا رسول الله ألا أطعمه المساكين ؟ قال « لا تطعموهم مما لا تأكلون » .

* * *

وفى قوله تعالى (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) يقول ابن عباس : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه فذلك قوله (إلا أن تغمضوا فيه) فكيف ترضون مالا ترضون لأنفسكم . وحتى عليكم من أطيب أحوالكم وأنفسه ؟ وذلك واضح فى قوله) لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

وقوله (واعلموا أن الله غنى حميد) إنه تعالى إن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى عنها وماذاك إلا أن يساوى الغنى الفقير كقوله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وهو غنى عن جميع خلقه ، وجميعهم فقراء إليه ، وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غنى واسع العطاء كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافا كثيرة من يقرض غير عديم ولا ظلوم وهو الحميد أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وفى قوله ز الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) يقول ابن مسعود قال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان) ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فالشيطان يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله (ويأمركم بالفحشاء) مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق قال الله تعالى (والله يعدكم مغفرة منه) أى فى مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء (وفضلا) أى فى مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر (والله واسع عليم)

وقوله : (يؤتى الحكمة من يشاء) والحكمة ليست بالنبوة ولكنها العلم والفقه والقرآن وخشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة وعن ابن مسعود مرفوعا « رأس الحكمة مخافة الله »

قال زيد بن أسلم : الحكمة العقل وقال غيره الحكمة هى الفقه فى دين الله وأمر يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله ، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا فى أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفا فى أمر دنياه عالما بأمر دينه بصيراً به يؤتيه الله إياه فالحكمة الفقه فى دين الله وفى الحديث « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » .

وقوله : (وما يذكر إلا أولو الألباب) أى وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعنى به الخطاب ومعنى الكلام .

* * *

وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من أنصار * إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء

فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير .

إنه تعالى عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال (وما للظالمين من أنصار) أى يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

وقوله : (إن تبدو الصدقات فنعما هى) أى إن أظهرتموها فنعم شيء هى (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) وفى ذلك دلالة على أن إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها لأن ذلك أبعد عن الرياء ، إلا أن يترتب على الاظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون الإظهار أفضل .

وفى الحديث « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » . فالأصل أن الاخفاء أفضل لهذه الآيه ولما جاء فى الحديث الذى رواه أبو هريرة « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

* * *

وفى حديث عن أنس بن مالك « لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت ، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل فى خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال نعم الحديد قالت : يارب فهل فى خلقك شيء أشد من الحديد قال : نعم النار قالت يارب فهل فى خلقك شيء أشد من النار قال : نعم الماء قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال . نعم الريح قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله وقد ذكرنا فى فضل آية الكرسى عن أبى ذر قال : قلت يارسول الله أى الصدقة أفضل

قال « سر إلى فقير أو جهد من مقل » وفى حديث « صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل » .

* * *

وقيل فى سبب نزول هذه الآية أنها أنزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى « ما خلفت وراءك لأهلك ياعمر » قال خلفت لهم نصف مالى وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى « ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر » قال عدة الله وعدة رسوله . فبكى عمر رضى الله عنه وقال بأبى أنت وأمى يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقا

وقوله (ويكفر عنكم من سيئاتكم) أى بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير فى رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات (والله بما تعملون خبير) لا يخفى عليه من ذلك شىء وسيجزيكم عليه

* * *

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم * الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

قال ابن عباس : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم فنزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) وعن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم) إلى آخرها فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين وسيأتى تفصيل ذلك عند تفسير قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم)

وقوله (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) كقوله (من عمل صالحا فلنفسه) ونظائرها فى القرآن كثيرة .

وقوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) قال الحسن البصرى نفقة المؤمن لنفسه ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله وقال عطاء الخراسانى : إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمل المعطى إليه، وحاصل هذا القول أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ولا عليه فى نفس الأمر إذا أصابت الصدقة برا أو فاجراً مستحقا أو غير مستحق وهو مثاب على قصده ومستند هذا تمام الآية (وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) والحديث الوارد فى الصحيحين عن أبى هريرة «قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبح الناس يتحدثون تصدق على زانية فقال اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على غنى قال : اللهم لك الحمد على غنى ، لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق ، فأتى فقيل له أما صدقتك فقد قبلت وأما الزانية فلعلها إن تستعفف بها عن زنا ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق أن يستعفف بها عن سرقته »

* * *

وقوله (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) يعنى المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم (ولا يستطيعون ضربا فى الأرض) يعنى سفراً للتسبب فى طلب المعاش ، والضرب فى الأرض هو السفر قال الله تعالى (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن

تقصروا من الصلاة) وقال تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله)

وقوله (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) أى الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم فى لباسهم وحالهم ومقالهم وفى هذا المعنى الحديث المتفق على صحته « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا » أولئك قال الله عنهم (تعرفهم بسيماهم) وذلك بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى (سيماهم فى وجوههم) .

وفى الحديث « اتقوا فراسة المؤمن بأنه ينظر بنور الله» وهؤلاء الذين تقدم وصفهم من ذوى الحاجة (لا يسألون الناس إلحافا) فلا يلحون فى مسألة ولا يكلفون الناس ما لا يحتاجون اليه فإن من سأله وله ما يغنيه عن المسئلة فقد ألحف فى المسئلة

* * *

تحدث رجل اشتدت به الحاجه عن نفسه فقال : قالت لى أمى ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس ، فانطلقت أسأله فوجدته قائما يخطب وهو يقول «ومن استعف أعفه الله ومن أستغنى أغناه الله ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافا» قال الرجل : فقلت بينى وبين نفسى لنا ناقة هى خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل .

* * *

قال عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ « من سأل وله ما يغنيه جاءت مسئلته يوم القيامة خدوشا أو كدوحا فى وجهه » قالوا يا رسول الله وما غناه ؟ قال : خمسون درهما أو حسابها من الذهب »

* * *

وقال محمد بن سيرين : بلغ الحارث أن أبا ذر كان به عوز فبعث اليه ثلثمائة دينار فقال : ما وجد عبد الله رجلا أهون عليه منى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سأل وله أربعون فقد ألحف » ولآل أبى ذر أربعون درهما وأربعون شاة

(وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) لا يخفى عليه شىء منه وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون اليه .

وقوله الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار ، حتى أن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص حين عاده مريضا عام الفتح وفى رواية عام حجة الوداع « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل فى امرأتك » وفى حديث عن ابن مسعود « إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة »

* * *

وقيل إن هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب كان له أربعة دراهم فأنفق درهما ليلا ودرهما نهاراً ودرهما سراً ودرهما علانية فنزلت (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية)

* * *

الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوى الحاجات والقرابات فى جميع الأحوال والأوقات شرع فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) أى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له وذلك أنه يقوم قياما منكرا .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحياة تجرى من خارج بطونهم فقلت . من هؤلاء ياجبريل ؟ قال هؤلاء

أكلة الربا » : وروى البخارى عن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل . . . . فأتينا على نهر أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجراً وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا .

وقوله (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا) فهم قد جوزوا ذلك اعتراضا على أحكام الله فى شرعه وقياسا منهم للربا على البيع وهذا اعتراض منهم على الشرع فقد . أحل الله هذا وحرم هذا ولهذا قال (وأحل الله البيع وحرم الربا) وهذا حكم العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم وما يضرهم فينهاهم عنه وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل ولهذا قال (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله) أى من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع اليه فله ما سلف من المعاملة لقوله (عفا الله عما سلف) وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا العباس) ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى الجاهلية . بل عفا عما سلف كما قال تعالى (فله ما سلف وأمره إلى الله) .

ثم قال تعالى (ومن عاد) أى إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله عنه فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة ولهذا قال (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ..

عن جابر أنه لما نزلت (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال رسول الله ﷺ « من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله » والمخابرة هى المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض والمزابنة وهى اشتراء الرطب فى رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض ، والمحاقلة وهى اشتراء الحب فى سنبله فى الحقل بالحب على وجه الأرض . إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسما لمادة الربا لأنه لا يعلم بالتساوى بين الشيئين قبل الجفاف ولهذا قال الفقهاء : الجهل بالمماثلة لحقيقة المفاضله ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المقضية إلى الربا والوسائل الموصله إليه وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم

وقد قال تعالى (وفوق كل ذى علم عليم) وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد الينا فيهن عهداً ننتهى إليه : الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا والشريعة شاهدة بأن كل الرباحرام فالوسيلة إليه مثله لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الحـــلال بين والحـرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » .

* * *

وفى السنن عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : سمعت رســـول الله ﷺ يقول « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » وفى حديث آخر « الإثم ما حاك فى القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » وفى رواية « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

* * *

قال أبو سعيد الخدرى : خطبنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : إنى لعلى أنهاكم عن أشياء تصلح لكم وآمركم بأشياء لا تصلح لكم ، وإن آخر القرآن نزولا آية الربا وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا فدعوا ما يريبكم إلى مالا يريبكم .

وقد وردت فى الربا عدة أحاديث نذكرها

« الربا ثلاثة وسبعون بابا »

« الربا سبعون جزءا أيسرها أن ينكح الرجل أمه »

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا » قال قيل له الناس كلهم؟ قال .

« من لم يأكله ناله من غباره »

وفى حديث آخر « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه »

يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

يمحق الله تعالى الربا أى يذهبه إما كلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به بل يعدمه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) وقال تعالى (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم) وقال (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) وفى هذا المعنى يقول عبد الله بن مسعود : الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل . وفى مثل هذا ما روى عن احتكار طعام المسلمين .

روى أن عمر خرج إلى المسجد وهو يومئذ أمير المؤمنين فرأى طعاما منشوراً فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا قال بارك الله فيه وفيمن جلبه ، قيل يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر قال من احتكره ؟ قالوا فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر فأرسل إليهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع فقال عمر . سمعت رسول الله ﷺ يقول « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام » فقال فروخ عند ذلك أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود فى طعامهم أبدا ، وأما مولى عمر فقال إنما نشترى بأموالنا ونبيع .

قال راوى القصة ، فلقد رأيت مولى عمر مجذوما .

* * *

وقوله تعالى : (ويربى الصدقات) قرىء بضم الياء والتخفيف من ربا الشىء يربو وأرباه يربيه أى كثره ونماه وقرىء يربى بالضم والتشديد من التربية وفى حديث رواه أبو هريرة « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه (مهره) حتى يكون مثل الجبل » .

* * *

وقوله : (والله لا يحب كل كفار أثيم) لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ولا بد من مناسبة فى ختم هذه الآية بهذه الصفة وهى أن المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح فهو يسعى فى أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل — ثم قال تعالى مادحا للمؤمنين بربهم المطيعين أمره المؤدين شكره المحسنين إلى خلقه فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعدلهم من الكرامة وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

* * *

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بتقواه بترك ما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه فيقول (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) خافوه وراقبوه فيما تفعلون (وذروا ما بقى من الربا) بترك ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الإنذار (إن كنتم مؤمنين) بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك .

وقد ذكر أن هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف وبنى المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا تؤدى الربا فى الإسلام بكسب الإسلام فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فكتب

رسول الله ﷺ إليه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطى الربا بعد الانذار .

• • •

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أن من كان مقيما على الربا لا ينزع عنه كان حقا على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن لم ينزع ضرب عنقه .

• • •

ثم قال تعالى (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون) أى لا تظلمون بأخذ الزيادة (ولا تظلمون) أى بترك رءوس الأموال أيضا بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه .

خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فقال « ألا إن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع عنكم كله لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله»

وقوله (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) وذلك تسهيل فى الأداء ثم يندب إلى الوضع عنه ويعد سبحانه على ذلك بالخير والثواب الجزيل فيقول (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) أى وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين . وقد وردت فى ذلك أحاديث متعددة منها « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه » وفى حديث آخر « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة »

يقول راوى هذا الحديث الأخير ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول أيضا « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة » قلت سمعتك يا رسول الله تقول (من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة) ثم سمعتك تقول من أنظر معسراً فله كل يوم مثلاه صدقة قال عليه السلام (له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فاذا حل الدين فأنظره فله كل يوم مثلاه صدقة)

* * *

قال محمد بن كعب القرظى أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبىء منه فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه فقال نعم هو فى البيت يأكل خزيرة فناداه فقال يا فلان أخرج فقد أخبرت أنك هنا ، فخرج اليه فقال ما يغيبك عنى ؟ فقال إنى معسر وليس عندى شيء ، قال آلله إنك معسر؟ قال نعم فبكى أبو قتادة ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (من نفس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة) .

قال حذيفة قال رسول الله ﷺ (أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ فقال ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها — قالها ثلاث مرات — قال العبد عند آخرها يا رب إنك كنت أعطيتنى فضل مال وكنت رجلا أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر، قال فيقول الله عز وجل أنا أحق من ييسر أدخل الجنة)

* * *

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه »

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة منها « من أعان مجاهداً فى سبيل الله أو غازيا أو غارما فى عسرته أو مكاتبا فى رقبته أظله الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله» ومنها «من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر ومنها « من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم . ألا إن عمل الجنة حزن بربوة . . ثلاثا . . ألا إن عمل النار سهل بسهوة ، والسعيد من وقى الفتن وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد الله إلا ملأ الله جوفه إيمانا »

« * »

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وقد روى أن هذه الآية آخر آية نزلت من

القرآن العظيم وعاش النبي بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول .

وقيل بل كان بين نزول هذه الآية وموت النبي ﷺ واحد وثلاثين يوما .

. . .

يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم .

هذه الآية الكريمة أطول آية فى القرآن العظيم .

وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا)

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قدم المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال « من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » .

وقوله (فاكتبوه) أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ فإن قيل فقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلا لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه بين الناس والسنن أيضا محفوظة عن رسول الله ﷺ والذى أمر بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم ، قال ابن جريج من أدان فليكتب ومن ابتاع فليشهد .

وقال قتادة ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشى كان رجلا صحب كعبا فقال ذات يوم لأصحابه هل تعلمون مظلوما دعا ربه فلم يستجب له ؟ فقالوا وكيف يكون ذلك ؟ قال رجل باع بيعا إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب فلما حل ماله جحده صاحبه فدعا ربه فلم يستجب له لأنه عصى ربه .

* * *

وقال أبو سعيد والشعبى وغيرهما أن ذلك كان واجبا ثم نسخ بقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته) وفى ذلك يروى عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلا من بنى اسرائيل سأل بعض بنى اسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال ائتنى بشهداء أشهدهم قال كفى بالله شهيدا قال ائتنى بكفيل قال كفى بالله كفيلا قال صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يقدم عليه الأجل الذى أجله فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبها ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ثم قال اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضى بذلك وسألنى شهيدا فقلت كفى بالله

شهيدا فرضى بذلك وإنى قد جهدت أن أجد مركبا أبعث بها إليه الذى أعطانى فلم أجد مركبا وإنى استودعتكها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يطلب مركبا إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا تجيئه بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه . قال هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال ألم أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه ؟ قال فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة فانصرف بألفك راشداً .

* * *

وهذه القصة رويت بإسناد صحيح وقد رواها البخارى فى سبعة مواضع من طرق صحيحة .

* * *

وقوله تعالى (فليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى بالقسط والحق ولا يجز فى كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان وقوله (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) أى ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرر عليه فى ذلك فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب كما جاء فى الحديث « إن من الصدقة أن تعين صانعا أو تصنع لأخرق » وفى حديث آخر « من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وقال مجاهد وعطاء واجب على الكاتب أن يكتب .

* * *

(وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه) أى وليملل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين وليتق الله فى ذلك (ولا يبخس منه شيئا) أى لا يكتم منه شيئا (فإن كان الذى عليه الحق سفيها) محجوراً عليه بتبذير ونحوه (أو ضعيفاً) صغيراً أو مجنونا (أو لا يستطيع أن يمل هو) لعى أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه (فليملل وليه بالعدل) .

وقوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) أمر بالاستشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) وهذا إنما يكون فى الأموال وما يقصد به

المال وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة كما قال مسلم فى صحيحه فى رواية عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال « تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن » قالت يا رسول الله ما نقصان العقل والدين : قال « أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالى لا تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين » .

* * *

وقوله (ممن ترضون من الشهداء) دلالة على اشتراط العدالة فى الشهود — وقوله (أن تضل إحداهما) يعنى المرأتين إذا نسيت الشهادة (فتذكر إحداهما الأخرى) .

وقوله : (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة وهذا كقوله (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله) ومن هنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية قيل وهو مذهب الجمهور وفى الحديث الشريف « ألا أخبركم بخير الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يسئلها » .

أما عن الحديث الآخر الذى فى الصحيحين « ألا أخبركم بشر الشهداء الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا » فهؤلاء شهود الزور .

* * *

(ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله) وذلك من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) أى هذا الأمر الذى أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلا هو أقسط عند الله أى أعدل وأقوم للشهادة فإن الشاهد إذا رأى توقيعه بخطه تذكر لاحتمال نسيانه إذا لم يكتبه كما هو الواقع غالبا (وأدنى أن لا ترتابوا) وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة

* * *

(إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) أى إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور فى تركها .

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى (واشهدوا إذا تبايعتم) أى اشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل فاشهدوا على حقكم على كل حال .

وقال الحسن والشعبى هذا القول منسوخ بقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته) وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب والدليل على ذلك حديث خزيمة الأنصارى ، أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبى أن النبى ﷺ ابتاع فرساً من أعرابى فاستتبعه النبى ليقضيه ثمن فرسه فأسرع النبى وأبطأ الأعرابى فطفق رجال يعترضون الإعرابى فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبى قد ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه النبى فنادى الإعرابى قال أوليس قد ابتعته منك ؟ قال الإعرابى لا والله مابعتك فقال النبى « بل قد ابتعته منك » فطفق الناس يلوذون بالنبى والأعرابى وهما يتراجعان فطفق الإعرابى يقول هلم شهيدا يشهد أنى بايعتك فمن جاء من المسلمين كان يقول الأعرابى ويلك أن النبى ﷺ لم يكن يقول إلا حقا ، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبى ومراجعة الأعرابى الذى يقول هلم شهيداً يشهد أنى بايعتك ، قال خزيمة أنا اشهد أنك قد بايعته فاقبل النبى على خزيمة فقال « بم تشهد » ؟ فقال بتصديقك يارسول الله ، فجعل رسول الله شهادة خزيمة بشهادة رجلين .

« ٥ »

وقوله (ولايضار كاتب ولا شهيد) قيل معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد فيكتب هذا خلاف ما يملى ويشهد هذا بخلاف ماسمع أو يكتمها بالكلية وقال آخرون بل معناه أن لايضر بهما (وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم) أى إذا خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم (واتقوا الله) خافوه واقبلوا واتبعوا أمره واتركوا زجره (ويعلمكم الله) وهذا كقوله (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وكقوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) .

وقوله (والله بكل شىء عليم) عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شىء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات .

« ٥ »

وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم

وإن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى (ولم تجدوا كاتباً) يكتب لكم أو وجدتموه ولم تجدوا قرطاساً أو قلماً فرهان مقبوضة فى يد صاحب الحق بدل الكتابة .

واستدل الشافعى بهذه الآية على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض واستدل آخرون منها على أن الرهن لا يكون مشروعا إلا فى السفر .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقا من شعير رهنها قوتا لأهله .

وقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته) قال أبو سعيد الخدرى أن هذه الآيه نسخت ما قبلها ، وقال الشعبى : إذا ائتمن بعضكم بعضا فلا بأس أن لا تكتبوا أولا تشهدوا وقوله (وليتق الله ربه) يعنى المؤتمن كما جاء فى الحديث « على اليد ما أخذت حتى تؤديه » (ولا تكتموا الشهادة) لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها وقال ابن عباس أن شهادة الزور من أكبر الكبائر وكذلك كتمان الشهادة ولذلك قال تعالى (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) يعنى فاجر قلبه وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيرا) وهكذا قال فى هذا السياق (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .

* * *

لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو

تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير .

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن وأنه المطلع على مافيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه فى صدورهم كما قال تعالى (قل إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيء قدير) وقال (يعلم السر وأخفى) والآيات فى ذلك كثيرة جدا وقد أخبر فى هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك .

* * *

لما نزلت هذه الآية على الصحابة رضى الله عنهم اشتد ذلك عليهم وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم فأتوا رسول الله ﷺ فجثوا على الركب وقالوا يارسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها .

فقال رسول الله (ﷺ) « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى أثرها (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

* * *

تحدث سعيد بن مرجانة فقال : بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر إذ تلا هذه الآية (لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء) فقال والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن . ثم بكى ابن عمر حتى سمع نشيجه . قال ابن مرجانة فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس يغفر الله لأبى عبد الرحمن لعمرى لقد وجد

المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر فأنزل الله بعدها (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) إلى آخر السورة قال ابن عباس فكان هذا مما لا طاقة للمسلمين به وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فى القول والفعل .

* * *

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً »

وروى الحديث فى لفظ آخر « قال الله . إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتهـــا له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة ».

« ٥ »

قال أبو هريرة جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال وقد وجدتموه » ؟ قالوا نعم قال « ذاك صريح الإيمان » وهذه هى الوسوسة ويقول ابن عباس عن الآية الكريمة (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » أنها لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول إنى أخبركم بما أخفيتم فى أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتى فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم وهو قوله (يحاسبكم به الله) أى يخبركم ، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما اخفوا من التكذيب وهو قوله (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وهو قوله (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) من الشك والنفاق

وقال الحسن البصرى عن هذه الآية أنها محكمة لم تنسخ وقال ابن جرير أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة وأنه تعـــالى قد يحاسب ويغفر وقد يحاسب ويعاقب وذلك من الحديث الذى رواه صفوان بن محرز قال بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال يا بن عمر أما سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له هل تعرف كذا فيقول رب أعرف مرتين حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم

فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الإشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين)

« ٠ »

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

ذكر الأحاديث الواردة

فى فضل هاتين الآيتين نفعنا الله بهما

الحديث الأول — عن ابن مسعود : « من قرأ بالآيتين — من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »

الحديث الثانى — عن أبى ذر قال : « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبى قبلى » .

الحديث الثالث — عن عبد الله قال : لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السابعة إليها ينتهى مايعرج من الأرض فيقبض منها وإليها

ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثا أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا .

الحديث الرابع — عن عقبة بن عامر الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ « اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإنى أعطيتهما من كنز تحت العرش » .

. . .

الحديث الخامس — عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا على الناس بثلاث أوتيت هذه الآيات من سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها أحد قبلى . ولا يعطاها أحد بعدى » .

فقوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) إخبار عن النبى ﷺ بذلك وروى قتادة أن رسول الله لما نزلت هذه الآية قال « ويحق له أن يؤمن ».

وقوله : (والمؤمنون) عطف على الرسول ثم أخبر عن الجميع فقال (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء . لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين (وقالوا سمعنا وأطعنا) أى سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه (غفرانك ربنا) سؤال للمغفرة والرحمة واللطف .

عن ابن عباس فى قول الله (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون — إلى قوله — غفرانك ربنا) قال قد غفرت لكم (وإليك المصير) أى المرجع والمآب يوم الحساب .

. . .

قيل لما نزلت هذه الآية قال جبريل إن الله قد أحسن الثناء عليك يا محمد وعلى أمتك فسل تعطه فسأل (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) إلى آخر الآية . ومعنى هذا لا يكلف أحداً فوق طاقته وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وحسانه إليهم وهذه هى الناسخة

الرافعة لما أشفق منه الصحابة فى قوله (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) أى هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه فأما مالا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان .

وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان .

. . .

وقوله (لها ما كسبت) أى من خير (وعليها ما اكتسبت) أى من شر وذلك فى الأعمال التى تدخل تحت التكليف .

ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) أى إن تركنا فرضا على جهة النسيان أو فعلنا حراما كذلك أو أخطأنا الصواب فى العمل جهلا منا بوجهه الشرعى . وقد تقدم فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال « قال الله نعم » والحديث ابن عباس قال الله « قد فعلت » .

وفى حديث رواه ابن عباس : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »

. . .

قال أبو بكر ذكرت للحسن قول النبى ﷺ إن الله تجاوز لأمتى عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه » فأجاب الحسن أما تقرأ بذلك قرآنا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

. . .

وقوله (ربنا لا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) أى لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التى كانت عليهم التى بعثت نبيك محمدا ﷺ نبى الرحمة بوضعها فى شرعه الذى أرسلته به من الدين الحنيفى السمح السهل (واعف عنا) فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا (واغفر لنا) فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة (وارحمنا) فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك فى ذنب آخر .

ولهذا قالوا إن الذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء أن يعفوا الله عنه فيما بينه وبينه وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم وأن يعصمه فلا يوقعه فى نظيره .

وقد تقدم فى الحديث أن الله قال نعم وفى الحديث الآخر قال الله قد فعلت .

وقوله : (أنت مولانا) ولينا وناصرنا وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول لنا ولا قوة إلا بك (فانصرنا على القوم الكافرين) الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك وعبدوا غيرك واشركوا معك من عبادك فانصرنا عليهم . واجعل لنا العاقبة عليهم فى الدنيا والآخرة .

قال الله نعم وفى الحديث الذى رواه مسلم عن ابن عباس قال الله قد فعلت .

. . .

عن أبى اسحق أن معاذا رضى الله عنه كان إذا فرغ من هذه السورة (وانصرنا على القوم الكافرين) قال آمين أى أنه كان إذا ختم البقرة قال آمين .

سورة آل عمران

ذكرنا ماورد فى فضلها على سورة البقرة فى أول سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم * الم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل. من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام .

قد ذكرنا الأحاديث الواردة فى اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) و (ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) عند تفسير سورة آية الكرسى وقد تقدم الكلام على قوله (الم) فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته وتقدم الكلام على قوله (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) فى تفسير آية الكرسى .

وقوله تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق) يعنى نزل عليك القرآن يا محمد بالحق فهو بلاشك ولاريب منزل من عندالله أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا .

وقوله (مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء فهى تصدقه بما أخبرت به وبشرت فى قديم الزمان والقرآن يصدقها لأنه طابق ماأخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه (وأنزل التوراة) على موسى بن عمران (والإنجيل) على عيسى بن مريم عليهما السلام (من قبل) هذا القرآن (هدى للناس) فى زمانهما (وأنزل الفرقان) الفارق بين الهدى والضلال والحق والباطل والغى والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات . والبراهين القاطعات . ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه .

وقوله تعالى (إن الذين كفروا بآيات الله) أى جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل (لهم عذاب شديد) يوم القيامة (والله عزيز) منيع الجناب عظيم السلطان (ذو انتقام) ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبيائه العظام .

إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض لا يخفى عليه شيء من ذلك (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) أى يخلقكم فى الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحسن وقبيح وشقى وسعيد (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فهو الذى خلق وهو المستحق للألهية وحده لاشريك له وله العزة التى لاترام ، والحكمة والأحكام ، وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى بن مريم مخلوق كما خلق الله سائر البشر لأن الله صوره فى الرحم وخلقه كما يشاء فكيف يكون إلهاً وقد تقلب فى الأحشاء وتنقل من حال إلى حال كما قال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) .

* * *

هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب * ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد

فى القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب فهن بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد وفيه آيات أخر فيها إشتباه فى الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن

رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه فقد اهتدى ولهذا قال تعالى : (هن أم الكتاب) أى أصله الذى يرجع إليه عند الاشتباه (وأخر متشابهات) تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا فى المحكم والمتشابه فروى عن السلف عبارات كثيرة .

قال سعيد بن جبير فى تفسير (هن أم الكتاب) لأنهن مكتوبات فى جميع الكتب

وقال مقاتل بن حيان : لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن، وقيل فى المتشابهات المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به .

وعن مجاهد أن المتشابهات يصدق بعضها بعضا وهذا فى تفسير قوله تعالى (كتابا متشابها مثانى) فذكروا هنا أن المتشابه هنا هو الكلام الذى يكون فى سياق واحد والمثانى هو الكلام فى شيئين متقابلين كصفة الجنة والنار ، وذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك .

وأما ونحن بصدد هذه الآية فإن المتشابه هو الذى يقابل المحكم وأحسن ماقيل فيه هو ما نص عليه محمد ابن اسحق بن يسار رحمه الله حيث قال (منه آيات محكمات) فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه

وأما المتشابهات فهو أيضا فى الحق ليس لهن تصريف ولا تحريف ولكن ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم فى الحلال والحرام .

. . .

ولهذا قال تعالى : (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) أى ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل (فيتبعون ما تشابه منه) إذ يأخذون بالمتشابه الذى يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال تعالى (ابتغاء الفتنة) أى الإضلال لأتباعهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد ذكر أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا قوله سبحانه : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) وقوله : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله .

وقوله تعالى : (وابتغاء تأويله) أى تحريفه على مايريدون ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت قرأ رسول الله ﷺ (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات) إلى قوله (أولو الألباب) فقال « إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم » .

. . .

عن أبى غالب قال سمعت أبا إمامة يحدث عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه) قال « هم الخوارج » وفى قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال « هم الخوارج » .

وهذا الحديث معناه صحيح فأن أول بدعة وقعت فى الإسلام فتنة الخوارج وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين فكأنهم رأوا فى عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل فى القسمة ففاجأوه بهذه المقالة فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة أعدل فإنك لم تعدل : فقال رسول الله ﷺ « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل أيأمننى على أهل الأرض ولا تأمنونى » فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب فى قتله فقال «دعه فإنه يخرج من ضئضىء هذا أى من جنسه قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم » ثم كان ظهورهم أيام على بن أبى طالب رضى الله عنه وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ثم انبعثت القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية وغيرهم من أصحاب البدع التى أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ فى قوله « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » قالوا وما هم يا رسول الله ؟ قال « من كان على ما أنا عليه وأصحابى »

وعن حذيفة أنه سمع رسول الله يقول « إن فى أمتى قوما يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل يتأولونه على غير تأويله »

. . .

وقوله تعالى : (ومايعلم تأويله إلا الله) اختلف القوم فى التفسير وقال ابن عباس رضى الله عنه . التفسير على أربعة أنحاء . فتفسير لا يقدر أحد فى فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

وفى الحديث الشريف : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به »

قال محمد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التى لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً فنفذت الحجة وزاح به الباطل ودفع به الكفر ، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »

ومن العلماء من يقول : التأويل يطلق ويراد به فى القرآن معنيان أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشىء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله تعالى : (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) وقوله : (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله) أى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد . أو يراد بالتأويل التفسير فى التعبير عن الشىء كقوله : (نبئنا بتأويله) أى بتفسيره .

وقوله تعالى : (يقولون آمنا به) أى آمنا بالمتشابه كل من عند ربنا أى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له إذ ليس شىء من عند الله بمختلف ولا متضاد كقوله : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) ولهذا قال تعالى (وما يذكر إلا أولوا الألباب) أى إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة . وقد سئل رسول الله ﷺ عن الراسخين فى العلم فقال « من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين فى العلم » وقال عليه السلام « نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء فى القرآن كفر — قالها ثلاثا — ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله » .

* * *

وقال نافع بن زيد الراسخون فى العلم المتواضعون لله المتذللون لله فى مرضاته لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم .

هؤلاء هم الذين دعوا ربهم قائلين : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) أى لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين فى قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم (وهب لنا من لدنك

رحمة) تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيمانا وإيقانا : (إنك أنت الوهاب) وفى الحديث عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » .

وقد سئل هل القلب يتقلب ؟ فقال « نعم ما خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه »

قال عبد الحميد بن بهرام يارسول الله ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى قال « بلى قل اللهم رب محمد اغفر لى ذنبى واذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن » .

* * *

وقوله : (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) أى يقولون فى دعائهم إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزى كلا بعمله وما كان عليه فى الدنيا من خير وشر .

* * *

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۞ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

يخبر الله تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وليس ما أوتوه فى الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى (ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وقال تعالى : (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) فالذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار) أى حطبها الذى تسجر به وتوقد به كقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنم) .

قالت أم الفضل أم عبد الله بن عباس بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل فنادى « هل بلغت اللهم هل بلغت » ثلاثا فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال نعم ثم أصبح فقال رسول الله « ليظهرن الإسلام حتى يرد الكفر إلى مواطنه ، وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرؤنه ثم يقولون قرأنا وعلمنا فمن هذا الذى هو خير منا ، فهل فى أولئك من خير » قالوا يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال « أولئك منكم وهم وقود النار »

* * *

وقوله تعالى : (كدأب آل فرعون) أى كسنة آل فرعون فى صنيعهم وأحوالهم. أى أن الكافرين لا تغنى عنهم الأموال ولا الأولاد بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه (والله شديد العقاب) لا يمتنع منه أحد ولا يفوته شىء .

* * *

قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ۞ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار

قل يا محمد للكافرين ستغلبون فى الدنيا وتحشرون يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد قال رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة ليهود بنى قينقاع « يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا » فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك إن قتلت نفراً من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله فى ذلك قوله : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد — إلى قوله — لعبرة لأولى الأبصار)

* * *

(قد كان لكم آية) أيها اليهود القائلون ما قلتم تدل على أن الله معز دينه ، وناصر رسوله ، ومظهر كلمته ومعلى أمره (فى فئتين) أى طائفتين (التقتا) للقتال (فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة) وهم مشركو قريش يوم بدر ، وقوله (يرونهم مثليهم رأى العين) حين كان المشركون يوم بدر يرون المسلمين مثليهم فى العدد رأى العين وقد كانوا من قبل قد بعثوا من قبلهم من أخبرهم بعدد المسلمين الذى لايجاوز ثلاثمائة ولكن الله أمدهم بألف من خواص الملائكة وساداتهم .

هذا تفسير .

وهناك تفسير آخر . أن المعنى فى قوله تعالى (يرونهم مثليهم رأى العين) أى أن الفئة المسلمة ترى الفئة الكافرة مثليهم فى العدد ومع هذا نصرهم الله .

ولكن هذا التفسير خلاف المشهور عند الجمهور إذ أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف وكان المؤمنون ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وقد تبين عدد المشركين من سؤال النبى ﷺ عبدا أسود لبنى الحجاج عن عدة قريش فقال : كثير قال النبى « كم ينحرون كل يوم » ؟ قال يوما تسعا ويوما عشرا ، قال النبى « القوم مابين تسعمائة إلى ألف » أى أنهم كانوا ثلاثة أمثال المسلمين لا مثليهم

ولكن بقى سؤال آخر

وهو أن يقال ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى قصة بدر (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا)

الجواب : أن هذا كان فى حالة والآخر كان فى حالة أخرى .

قال عبد الله بن مسعود عن يوم بدر : وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحداً ، وفى رواية أخرى عن إبن مسعود يقول : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبى تراهم سبعين ؟

قال : أراهم مائة قال : فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم ؟ قال : ألفا

فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم أى أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والفلع ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء وهؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما

على الآخر (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى ليفرق بين الحق والباطل فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين . كما قال تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وقال ههنا (والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) أى أن فى ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدى بذلك إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد

* * *

زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الثواب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد .

إخبار من الله تعالى عما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد وقد جاء فى الحديث الصحيح « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » فأما إذا كان القصد بهن الاعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء وقوله ﷺ « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله »

* * *

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل فى هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل فهذا محمود ممدوح لما ثبت فى الحديث « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » .

وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة فى القربات وصلة الأرحام ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعا .

* * *

وحب الخيل على ثلاثة أقسام . تارة يعدها أصحابها للغزو فى سبيل الله فهؤلاء يثابون وتارة تربط فخراً فهذا على صاحبها وزر وتارة للتعفف واقتناء نسلها مع عدم ترك حق الله فى رقابها فهذه لصاحبها ستر كما سيأتى الحديث إن شاء الله تعالى عند قوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وأما المسومة فهى المطهمة وفى حديث شريف « ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول : اللهم إنك خولتنى من خولتنى من بنى آدم فاجعلنى من أحب ماله وأهله إليـــه . . . . . »

وقوله تعالى : (والأنعام) يعنى الإبل والبقر والغنم (والحرث) يعنى الأرض المتخذة للغراس والزراعة وفى الحديث « خير مال امرىء له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة » والمأبورة الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف والمأبورة الملقحة .

ثم قال تعالى : (ذلك متاع الحياة الدنيا) أى إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة (والله عنده حسن المآب) أى حسن المرجع والثواب .

* * *

قال عمر بن الخطاب لما نزلت (زين للناس حب الشهوات) الآن يارب زينتها لنا فنزلت (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا) الآية . . أى قل يا محمـــد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذى هو زائل لا محالة (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (خالدين فيها) أى ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا .

(وأزواج مطهرة) من الدنس والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا (ورضوان من الله) أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا . ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى التى فى براءة (ورضوان من الله أكبر) أى أعظم

بما أعطاهم من النعيم المقيم ثم قال تعالى (والله بصير بالعباد) يعطى كلا بحسب مايستحقه من العطاء .

* * *

الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار

يصف الله تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى : (الذين يقولون ربنا إننا آمنا) بك وبكتابك وبرسولك (فاغفر لنا ذنوبنا) بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا فى أمرنا بفضلك ورحمتك (وقنا عذاب النار) .

ثم قال تعالى (الصابرين) أى فى قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات (والصادقين) فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة (والقانتين) والقنوت الطاعة والخضوع (والمنفقين) من أموالهم فى جميع ما أمروا به من الطاعات وصلة الأرحام والقرابات ، ومواساة ذوى الحاجات (والمستغفرين بالأسحار)وفى ذلك دلالة على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار : وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه (سوف أستغفر لكم ربى) كان يعنى تأخير استغفاره إلى وقت السحر ولهذا قال سوف أستغفر لكم .

* * *

وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ »

وقالت عائشة : من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره فانتهى وتره إلى السحر .

وكان عبد الله بن عمر يصلى من الليل ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح .

وقال ابراهيم بن حاطب عن أبيه : سمعت رجلا فى السحر فى ناصية المسجد وهو يقول : يا رب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفر لى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه .

* * *

وقال أنس بن مالك كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة .

* * *

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد .

شهد الله تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين : (أنه لا إله إلا هو) المنفرد بالآلهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه وهو الغنى عما سواه كما قال تعالى : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام (قائما بالقسط) فى جميع الأحوال (لا إله إلا هو) تأكيداً لما سبق (العزيز الحكيم) العزيز الذى لا يرام جنابه عظمة وكبرياء الحكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

* * *

عن الزبير بن العوام قال : سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ويقول وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب .

قال غالب القطان : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش وفى ذات ليلة قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاهو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) ثم قال الأعمش وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله وديعة (إن الدين عند الله الإسلام) قالها الأعمش مراراً ، قلت : لقد سمع فيها شيئا فغدوت إليه ثم قلت يا أبا محمد إنى سمعتك تردد هذه الآية . . قال : أو ما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثنى . . قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة فأقمت سنة فكنت على بابه فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة قال : حدثنى أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » .

* * *

وقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم به فى كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقى الله بعد بعثة محمد بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه)

ثم أخبر الله تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم فقال : (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) أى بغى بعضهم على بعض فاختلفوا فى الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم فحمل بعضهم البعض الآخر على مخالفته فى جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً . ثم قال تعالى (ومن يكفر بآيات الله) أى من جحد ما أنزل الله فى كتابه (فإن الله سريع الحساب) سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه .

(فإن حاجوك) جادلوك فى التوحيد (فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) أى فقل أخلصت عبادتى لله وحده لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له :

(ومن اتبعن) على دينى يقول كما قال تعالى : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينـــه والدخول فى شرعه وما بعثه الله به فقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) أى والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشـاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى : (والله بصير بالعباد) أى هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة وهو الذى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وما ذلك إلا لحكمته ورحمته .

« ☆ »

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وقال تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

☆ ☆ ☆

وفى الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالا لأمر الله له بذلك وروى أنه قال « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار » وقال « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة »

وعن أنس رضى الله عنه : أن غلاما يهوديا كان يضع للنبى ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبى فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبى « يا فلان قل لا إله إلا الله » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبى فنظر إلى أبيه فقال له أبوه : أطع أبا القاسم . فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسـول الله فخرج النبى وهو يقول « الحمد لله الذى أخرجه بى من النار » .

☆ ☆ ☆

إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم فى تكذيبهم بآيات الله قديما وحديثا التى بلغتهم إياها الرسل استكبارا عليهم وعنادا لهم وتعاظما على الحق واستنكافا عن اتباعه ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) وهذا غاية الكبر كما قال النبى ﷺ « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

قال حميدة بن الجراح قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال « رجل قتل نبيا أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ثم قرأ رسول الله (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) ثم قال رسول الله « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلا من بنى إسرائيل كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر ذلك النهار من ذلك اليوم . فهم الذين ذكر الله عز وجل (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) .

* * *

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون .

فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

يقول تعالى ذلك منكراً شأن اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم وهما التوراة والإنجيل وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما ، وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم والتشويه بذكرهم بالمخالفة والعناد ثم قال تعالى (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) أى إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما أدعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة فى الدنيا يوما ، وقد تقدم تفسير ذلك فى سورة البقرة .

ثم قال تعالى : (وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) أى ثبتهم على هذا الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ولم ينزل الله به سلطانا ، قال الله تعالى مهددا لهم ومتوعدا (فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) أى كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والله تعالى سائلهم عن ذلك كله وحاكم عليهم ومجازيهم به . ولهذا قال تعالى (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) أى لا شك فى وقوعه وكونه (ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب

يقول تبارك وتعالى (قل) يا محمد معظما لربك وشاكراً له ومفوضا إليه ومتوكلا عليه (اللهم مالك الملك) أى المالك لك كله (تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) أنت المعطى وأنت المانع وأنت الذى ماشئت كان وما لم تشأ لم يكن .

فى هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة لأن الله تعالى حول النبوة من بنى إسرائيل إلى النبى العربى القرشى الأمى المكى خاتم الأنبياء على الإطلاق . ورسول الله إلى جميع الإنس والجن . الذى جمع الله فيه محاسن من كان قبله وخصه بخصائص لم يعطها نبيا من الأنبياء ولا رسولا من الرسل فى العلم بالله وشريعته واطلاعه على الغيوب الماضية . والآتية وكشفه له عن حقائق الآخرة ونشر أمته فى الآفاق فى مشارق الأرض ومغاربها وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع . ولهذا قال تعالى (قل اللهم مالك الملك) أى أنت المتصرف فى خلقك الفعال لما تريد .

• • •

كما رد الله تعالى على من قال (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) قال الله رداً عليهم (أهم يقسمون رحمة ربك) أى نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة فى ذلك وهكذا يعطى النبوة لمن يريد كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال تعالى (أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)

• • •

وقد روى عن الخليفة المأمون أنه رأى فى قصر ببلاد الروم مكتوبا بالحميرية فعرب له فإذا هو باسم الله ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء فى الفلك إلا بنقل النعيم عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك . وملك ذى العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك .

وقوله تعالى (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) أى تأخذ من طول هذا فتزيده فى قصر هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان . وهكذا فى فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء .

وقوله تعالى : (وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى) أى تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء .

« * »

(وترزق من تشاء بغير حساب) تعطى من شئت من المال فوق ما يطيق ولا يقدر على احصائه وتقتر على آخرين ، لما لك فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة .

وفى الحديث الشريف : « إسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى هذه الآية من آل عمران : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير)

* * *

لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ثم توعد على ذلك فقال : (ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء) أى ومن يرتكب هذا فقد برىء من الله كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة — إلى أن قال — ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم)

وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب :

(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ألا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير)

وقوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إلا من خاف فى بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما قال البخارى عن أبى الدرداء : « إنا لنهش فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم » ويؤيد ذلك قوله تعالى : (من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)

وقال تعالى : (ويحذركم الله نفسه) أى يحذركم نقمته فى مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه : (وإلى الله المصير) أى إليه المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله .

. . .

قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد

يخبر الله تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر وأنه لا يخفى عليه منهم خافية بل علمه محيط بهم فى سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات وجميع ما فى الأرض والسموات لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك فى جميع أقطار الأرض والبحار والجبال (والله على كل شىء قدير) قدرته نافذة فى جميع ذلك .

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال بعد هذا (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) أى يوم القيامة كما قال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغمه ، وود

لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشيطانه الذى كان مقرونا به فى الدنيا ، وهو الذى جرأه على فعل السوء : (يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين)

* * *

ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً (ويحذركم الله نفسه) أى يخوفكم عقابه ، ثم قال جل جلاله مرجياً لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه : (والله رءوف بالعباد)

قال الحسن البصرى ، من رأفته بهم حذركم نفسه إنه سبحانه رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم وأن يتبعوا رسوله الكريم .

* * *

قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين

هذه الآية الكريمة حاكمة بأن كل من ادعى محبة الله وليس على الطريقة المحمدية فإنه كاذب فى دعواه حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد »

ولهذا قال : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) أى يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه محبته إياكم وذلك أعظم وقد قال بعض العلماء الحكماء . ليس الشأن أن تحب وإنما الشأن أن تحب .

وقال الحسن البصرى وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)

* * *

(ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم)

وذلك باتباعكم الرسول ، ثم قال تعالى آمراً جميع الخلائق من خاص وعام : (قل

أطيعوا الله والرسول فإن تولوا) أى خالفوا عن أمره (فإن الله لا يحب الكافرين) فدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم فى نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبى الأمى خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذى لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولوا العزم منهم فى زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول فى طاعته واتباع شريعته كما سيأتى تقريره إن شاء الله عند قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) .

* * *

إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين
ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم

يخبر الله تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم عليه السلام . خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما له فى ذلك من الحكمة .

واصطفى نوحا عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرانى قومه يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا ، سراً وجهراً ، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً ، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذى بعثه الله به ، واصطفى آل ابراهيم ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ ، وآل عمران والمراد بعمران هذا والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام .

* * *

إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل
منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى

والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم

امرأة عمران هذه هى أم مريم عليها السلام ، وهى حنة بنت فاقوذ .

قال محمد بن اسحق : وكانت امرأة لا تحمل فرأت يوما طائراً يزق فرخه فاشتهت الولد فدعت الله تعالى أن يهبها فاستجاب الله دعاءها ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً أى خالصاً مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس فقالت : يا رب (إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم) أى السميع لدعائى العليم بنيتى ، ولم تكن تعلم ما فى بطنها أذكراً أم أنثى (فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) فى القوة والجلد والعبادة .

(وإنى سميتها مريم)

دليل على جواز التسمية يوم الولادة وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله حيث قال « ولد لى الليلة ولد سميته باسم أبى ابراهيم » .

* * *

(وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)

أى عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام فاستجاب الله لها ذلك . . وفى الحديث : « ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مسه إياه إلا مريم وابنها »

* * *

فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب

إن الله تعالى قد تقبلها من أمها وأنبتها نباتاً حسناً ويسر لها أسباب القبول وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فلهذا قال (وكفلها زكريا) وقيل أن بنى إسرائيل أصابتهم سنة جدب فكفل زكريا مريم لذلك ، وقدر الله ذلك لتقتبس من زكريا علما جما نافعا وعملا صالحا وكان زوج خالتها على ماذكره ابن اسحق وفى الحديث الشريف « الخالة بمنزلة الأم » وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى فى عمارة بنت حمزة أن تكون فى حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبى طالب .

• • •

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) قال بعضهم وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف وقال بعضهم بل وجد عندها علما .

والتفسير الأول أصح . وفيه دلالة على كرامات الأولياء ، وفى السنة لهذا نظائر كثيرة .

فإذا رأى زكريا عندها هذا (قال يا مريم أنى لك هذا) استفهام عن مصدر هذا الرزق (قالت هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب)

وعن جابر أن رسول الله أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال : « يا بنية هل عندك شىء آكله فإنى جائع ؟ » قالت . لا والله — بأبى أنت وأمى .

فلما خرج من عندها ، بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى ، وكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة طعام .

فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله فرجع إليها فقالت : بأبى أنت وأمى قد أتى الله بشىء فخبأته لك قال « هلمى يابنية » قالت فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هى مملوءة خبزا ولحما فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه حمد الله وقال « من أين لك هذا يابنية ؟ » قالت : يا أبت (هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فحمد الله وقال « الحمد لله الذى جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئا وسئلت عنه قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » فبعث

رسول الله إلى على ثم أكل وأكل على وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبي وأهل بيته حتى شبعوا جميعا : قالت وبقيت الجفنة كما هي فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيرا .

* * *

هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيي مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيا من الصالحين قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار .

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء طمع حينئذ فى الولد وإن كان شيخا كبيراً قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا . لكنه مع هذا كله . سأل ربه وناداه خفيا وقال (رب هب لى من لدنك) أى من عندك (ذرية طيبة) أى ولداً صالحا (إنك سميع الدعاء) .

قال الله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) أى خاطبته الملائكة شفاها خطابا أسمعته وهو قائم يصلى فى محراب عبـــادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته ثم بشرته الملائكة (أن الله يبشرك بيحيي) ولد من صلبك يكون هذا إسمه .

قال قتادة وغيره : إنما سمى يحيي لأن الله أحياه بالإيمان .

(مصدقا بكلمة منه) قيل فى تفسير ذلك أى مصدقا بعيسى بن مريم ، وكان عيسى ويحيي إبنى خالة ، ويحيي أكبر من عيسى عليهما السلام .

وقوله (وسيداً) أى فى العلم والعبادة فهى سيادة فى الخلق والدين (وحصوراً) معصوما من الذنوب لايأتيها كأنه حصور عنها . وقيل مانعاً نفسه عن الشهوات ، فهو معصوم من الفواحش والقاذورات (ونبياً من الصالحين) .

إنها بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته وهى أعلى من الأولى كقوله لأم موسى (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فلما تحقق زكريا هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر .

(قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال) أى الملك (كذلك يفعل الله مايشاء) فذلك أمر الله العظيم الذى لايعجزه شىء ولايتعاظمه أمر ، فأراد أن تكون له علامة يستدل بها على وجود الولد منه (قال رب اجعل لى آية)

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا)

إشارة بغير نطق مع أنك سوى صحيح ، ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح فى هذه الحال فقال (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار) .

وسيأتى طرف آخر فى بسط هذا المقام فى أول سورة مريم إن شاء الله تعالى .

« ٠ »

وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون .

هكذا خاطبت الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك بأنه تعالى قد اصطفاها أى اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس واصطفاها ثانيا مرة بعد مرة لتفوقها على نساء العالمين .

وفى الصحيحين من حديث ابن هشام « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد »

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال « حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون » .

* * *

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبـــادة والخشوع والركوع والسجود والدأب فى العمل لما يريد الله بها من الأمر . الذى قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة فى الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولداً من غير أب فقال تعالى (يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) .

أما القنوت فهو الطاعة فى خشوع كما قال تعالى (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) .

وفى الحديث « كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

وقال مجاهد : كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها ، والقنوت هو طول الركوع فى الصلاة امتثالا لقول الله (يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) أى كونى منهم .

* * *

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) .

أى نقصه عليك وما كنت عندهم يامحمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا فى شأن مريم أيهم يكفلها وذلك لرغبتهم فى الأجر ، وقد ذكر بعضهم فى ذلك أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت فى جرية الماء فهو كافلها ، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا قد ثبت . وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين .

* * *

إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس

فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون .

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأنه سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير قال الله تعالى (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أى بولد يكون وجوده بكلمة من الله أى يقول له كن فيكون . وهذا تفسير قوله (مصدقا بكلمة منه) كما ذكره الجمهور .

(إسمه المسيح عيسى بن مريم) .

أى يكون هذا مشهورا فى الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك ، وسمى المسيح لكثرة سياحته ، كما قال بعض السلف ، وقيل لأنه مسيح القدمين لا أخمص لهما ، وقيل لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوى العاهات برىء بإذن الله تعالى .

وقوله تعالى (عيسى بن مريم) نسبة إلى أمه حيث لا أب له .

(وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) .

له مكانة عند الله فى الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله ، وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولى العزم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

* * *

(ويكلم الناس فى المهد وكهلا)

يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له فى حالة صغره معجزة وآية ، وفى حال كهولته حين يوحى الله إليه .

(ومن الصالحين) .

فى قوله وعمله له علم صحيح وعمل صالح ، وفى الحديث « ما تكلم أحد فى صغره إلا عيسى وصاحب جريج » .

فلما سمعت مريم بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل قالت فى مناجاتها : (رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟) فكيف يكون هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى أن أتزوج ولست بغياً حاشا لله .

فقال لها الملك عن الله عز وجل فى جواب ذلك السؤال : (كذلك الله يخلق ما يشاء) فهكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء . وصرح ههنا بقوله (يخلق مايشاء) ولم يقل يفعل كما فى قصة زكريا ، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله : (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) فلا يتأخر شيء بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعا .

ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم

يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام ، إن الله يعلمه الكتاب والحكمة ، والظاهر أن المراد بالكتاب هنا الكتابة . والحكمة تقدم تفسيرها فى سورة البقرة . والتوراة والإنجيل فالتوراة هو الكتاب الذى أنزل على

موسى بن عمران ، والإنجيل الذى أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام .

وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا قوله : (ورسولا إلى بنى إسرائيل) قائلا لهم : (إنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) .

وكذلك كان يفعل

كان يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن الله عز وجل الذى جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله .

(وأبرىء الأكمه) قيل إنه الذى يبصر نهاراً ولا يبصر ليلا ، وقيل العكس ، وقيل الأعشى ، وقيل الأعمش ، وقيل هو الذى يولد أعمى (والأبرص) معروف (وأحيي الموتى بإذن الله)

قال كثير من العلماء بعث الله كل نبى من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استوقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار .

وأما عيسى عليه السلام فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذى شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد .

وكذلك محمد ﷺ بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء والشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من قبله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا .

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) .

أخبركم بما أكل أحدكم الآن وما هو مدخر له فى بيته لغد (إن فى ذلك) أى فى ذلك كله (لآية لكم) على صدق فيما جئتكم به (إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوراة) مقررا لها ومثبتا (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) فى ذلك

دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين ومن العلماء من قال لم ينسخ منها شيئا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ فأخطأوا فكشف لهم عن المغطى فى ذلك كما قال تعالى فى الآية الأخرى (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) والله أعلم .

(وجئتكم بآية من ربكم) حجة ودلالة على صدقى (فأتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه) أى أنا وأنتم سواء فى العبودية له والخضوع والاستكانة إليه : (هذا صراط مستقيم)

* * *

فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين

(فلما أحس عيسى)

لما استشعر عيسى منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال : (من أنصارى إلى الله) من يتبعنى إليه ؟ كما كان النبى ﷺ يقول فى مواسم الحج قبل أن يهاجر « من رجل يؤوينى حتى أبلغ كلام ربى فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضى الله عنهم وأرضاهم .

وهكذا كان عيسى بن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بنى إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه .

ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم (قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)

ومعنى الحواري أنه الناصر ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير قال (لكل نبي حواري وحواري الزبير)

وفي تفسير : (فاكتبنا مع الشاهدين) يقول ابن عباس إنها أمة محمد .

« • »

وهم الملأ من بني إسرائيل بالفتك بعيسى عليه السلام فوشوا به إلى ملك لهم كافر فقالوا إن هنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك من الكذب وأنه ولد زنية ، حتى استشاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه .

فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم ورفعه إلى السماء وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم وأسكن الله قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازما لهم .

فهذا قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)

إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ۞ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ۞ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم

اختلف المفسرون فى قوله تعالى : (إنى متوفيك ورافعك إلى)

قال بعضهم هذا من المقدم والمؤخر تقديره إنى رافعك إلى ومتوفيك بعد ذلك ، وقال آخرون بل توفاه الله بضع ساعات أو أيام ثم بعثه ثم رفعه ، وقال الأكثرون المراد بالوفاة ههنا : النوم كما قال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) . . وقال أيضاً : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) . وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا »

(ومطهرك من الذين كفروا)

يرفعنى إياك إلى السماء (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعا بعده فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته . ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله . وآخرون قالوا هو الله وآخرون قالوا هو ثالث ثلاثة .

وقد حكى الله مقالتهم فى القرآن ورد على كل فريق فاستمروا على ذلك قريبا من ثلثمائة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين فدخل فى دين النصرانية قيل حيلة ليفسده فإنه كان فيلسوفا ، وقيل جهلا منه ، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه وزاد فيه و نقص منه ووضع لذلك القوانين . وأحل فى زمانه لحم الخنزير ، وصلوا إلى المشرق ، وزاد فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون وبنى كثيراً من الكنائس والمعابد والصوامع وصار دين المسيح دين قسطنطين وبنى المدينة المنسوبة إليه واتبعه طائفة منهم وظهروا فى ذلك كله على اليهود أيده الله عليهم لأنه أقرب إلى الحق منهم وإن كان الجميع كفاراً .

فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، فكانوا هم أتباع كل نبى على وجه الأرض ، إذ قد صدقوا الرسول النبى الأمى العربى خاتم الرسل فكانوا أولى بكل نبى من أمته ممن يزعمون أنهم على ملته بعد أن حرفوا وبدلوا ، ثم لو لم يكن شىء من ذلك فإن الله قد نسخ شريعة جميع الرسل بما بعث به محمداً ﷺ من الدين الحق الذى لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ولا يزال

قائمـــاً منصوراً ظاهراً على كل دين فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها واجتازوا جميع الممالك ودانت لهم جميع الدول وكسروا كسرى وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما وأنفقت فى سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربه (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لايشركون بى شيئا)

ومهما تغير الزمان بالمسلمين فإن العقبى لابد لهم تحقيقاً لوعد الله ما ظلوا على الحق ومارجعوا إليه وأحسنوا اتباع نبيهم ولهذا قال تعالى : (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ۞ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين)

وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أوغلا فيه عذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى وفى الآخرة عذاب أشد وأشق (ومالهم من الله من واق) . (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالنصر والظفر ، وفى الآخرة بالجنات العاليات (والله لا يحب الظالمين)

۞ ۞ ۞

(ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم)

فهذا الذى قصصنا عليك يا محمد فى أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره هو ماقاله تعالى وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ فلا مرية فيه ولاشك (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ۞ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)

۞ ۞ ۞

إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين ۞ فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم

وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين

(إن مثل عيسى عند الله) فى قدرة الله حيث خلقه من غير أب (كمثل آدم) حيث خلقه من غير أب ولا أم بل (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فالذى خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز إدعاء النبوة فى عيسى لكونه مخلوقا من غير أب فجواز ذلك فى آدم بالطريق الأولى . ومعلوم بالاتفاق إن ذلك باطل فدعواه فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا ، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ولهذا قال تعالى فى سورة مريم : (ولنجعله آية للناس) وقال ههنا : (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) أى هذا هو القول الحق فى عيسى الذى لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

* * *

ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق فى أمر عيسى بعد ظهور البيان : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أى نحضرهم فى حال المباهلة (ثم نبتهل) أى نلتعن (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) منا ومنكم .

* * *

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نجران ، ذلك أن فريقا من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ ، فلما حانت صلاتهم صلوا فى مسجد النبى إلى المشرق . وهم على اختلاف أمرهم يقولون أن عيسى عليه السلام هو الله ذلك بأنه كان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا وذلك كله بأمر الله ، وليجعله الله آية،

للناس ، ويقولون أنه ابن الله لأنه لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم فى المهد بشىء لم يصنعه أحد من بنى آدم قبله .

ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت ولكنه . . هو . . وعيسى ومريم . . تعالى الله وتقدس عما يقولون .

فلما جاء وفد نجران إلى النبى ﷺ طلب إليهم الإسلام فسألوه عن عيسى فقالوا : من أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

ويقول ابن اسحاق فى تفسيره .

فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من مباهلتهم أن ردوا ذلك عليه قالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ثم أنهم اجتمعوا فيما بينهم وتشاوروا وقال لهم كبير منهم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم فإن كنتم أبيتم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها فى أموالنا فإنكم عندنا رضا فقال رسول الله ﷺ « ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين »

فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : —

ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها فرحت إلى الظهر مهجراً فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر ثم سلم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليرانى فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : « أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضى الله عنه

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ

إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة) والكلمة تطلق على الجملة المفيدة (سواء بيننا وبينكم) أى نستوى نحن وأنتم فيها وننتهى منها إلى نتيجة هى (أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) لا وثناً ولا صليباً ولا صنما ولا طاغوتا ولا ناراً ولا شيئاً بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له .

وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وكذلك قال : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

* * *

ثم قال تعالى : (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) فلا يسجد بعضنا لبعض ولا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله .

* * *

(فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

فإن تولوا عن هذه الدعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم .

يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان ابراهيم

يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى فى محاجتهم فى إبراهيم الخليل عليه السلام ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم . . وعن ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان ابراهيم إلا يهودياً : وقالت النصارى ما كان ابراهيم إلا نصرانيا فأنزل الله تعالى (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم) أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن ينزل التوراة على موسى ، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال تعالى (أفلا تعقلون)

* * *

(ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم)

إنكار على من يحاج فيما لا علم له به فإن اليهود والنصارى تحاجوا فى ابراهيم بلا علم ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التى شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم ، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون ، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها ، ولهذا قال تعالى والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

* * *

(وما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما) أى كان متحنفا عن الشرك قاصداً إلى الإيمان (وما كان من المشركين)

وهذه الآية كالتى تقدمت فى سورة البقرة (وقالوا كونوا هوداً أو نصارا تهتدوا)

* * *

(إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين)

يقول تعالى : إن أحق الناس بإبراهيم الخليل هم الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبي محمداً والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم .

وفى الحديث الشريف : « لكل نبي ولاة من النبيين ، وإن ولى منهم أبى وخليل ربى عز وجل » ثم قرأ النبي : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهـــذا النبي والذين آمنوا)

(والله ولى المؤمنين)

أى ولى جميع المؤمنين برسله .

* * *

ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ۞ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ۞ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ۞ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ۞ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ۞ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

ذلك إخبار عن حسد اليهود وبغيهم إضلال المؤمنين وإخبـــار بأن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم .

ثم قال تعالى : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) تعلمون صدقها وتتحققون حقها : (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) تكتمون ما فى كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره) فهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم فاتفقوا أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ولهذا قالوا : (لعلهم يرجعون)

* * *

وقالوا وهم يتواصون بينهم (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) فلا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم للمسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم فأجابهم الله على ذلك بقوله تعالى (قل إن الهدى هدى الله) فهو الذى يهدى قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات وإن كتمتم أيها اليهود ما تعلمونه فى كتبكم من صفة محمد النبى الأمى .

* * *

وقوله تعالى (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) يقولون لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ويساوونكم فيه ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به ، أو يحاجوكم به عند ربكم ، أى يتخذوه حجة عليكم فتقوم به عليكم الدلالة وتركبكم الحجة فى الدنيا والآخرة .

* * *

(قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) فالأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطى المانع يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمى بصره وبصيرته ويختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة وله الحجة التامة والحكمة البالغة (والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) فقد اختصكم أيها المؤمنون بالفضل الذى لا يحد ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به إلى أكمل الشرائع .

ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين .

إخبار من الله تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة وتحذير للمؤمنين من الاغترار بهم فان منهم (من إن تأمنه بقنطار) من المال (يؤده إليك) وما دونه بطريق الأولى يؤده إليك كذلك (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما) بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه فى الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤده إليك .

ولما كان الناس يتحنون بالمعاملات فقد قيل أن الدينار سمى كذلك لأنه دين ونار . وقيل فى ذلك من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذه بغير حقه فله النار .

(٠ ٠)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم فقال كفى بالله شهيدا . قال : ائتنى بالكفيل . قال : كفى بالله كفيلا . قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبها ليقدم عليه فى الأجل الذى أجله ، فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر فقال : اللهم إنك تعلم أنى استسلفت فلانا ألف دينار فسألنى شهيداً فقلت كفى بالله شهيدا ، وسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك وإنى جهدت فى أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعتكها . فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه لينظر لعل مركباً يجيئه بماله فإذا بالخشبة

التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا . فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله مازلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟

قال : ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا ؟

قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بألف دينار راشدا

هكذا رواه البخارى فى موضع معلقا بصيغة الجزم .

* * *

(ذلك بأنهم قالوا . ليس علينا فى الأميين سبيل) أى إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا فى ديننا حرج فى أكل أموال الأميين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا . قال الله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أى وقد اختلقوا هذه المقالة ، واتفكوها بهذه الضلالة ، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت .

وفى رواية أن رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة . قال ابن عباس : فتقولون ماذا !

قال : نقول ليس علينا بذلك بأس .

قال : هـــذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الأميين سبيل ، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم .

* * *

وعن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الأميين سبيل قال نبى الله ﷺ « كذب أعداء الله مامن شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر »

ثم قال تعالى (بلى من أوفى بعهده واتقى)

أى لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذى عاهدكم الله من الإيمان

بمحمد ﷺ إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك واتقى محارم الله واتبع طاعته وشريعته التى بعث بها خاتم رسله وسيدهم (فإن الله يحب المتقين) .

* * *

إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره وعن إيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة وهى عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة (أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة) فلا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة) أى لا ينظر إليهم بعين الرحمة (ولا يزكيهم) من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار (ولهم عذاب أليم) وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة نذكر منها :

الحديث الأول

عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » .

قلت يارسول الله من هم ؟ خسروا وخابوا قال : وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات « المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنافق » .

الحديث الثانى

عن العرس بن عميرة الكندى قال : خاصم رجل من كنده يقال له امرؤ القيس ابن عامر رجلا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ فى أرض فقضى على الحضرمى بالبينة فلم يكن له بينة ، فقضى على امرىء القيس باليمين فقال الحضرمى : أمكنته من اليمين يارسول الله ؟ ذهبت ورب الكعبة أرضى ، فقال النبى ﷺ « من حلف على يمين

كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان ، فأنزل الله ﷺ (إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمنا قليلا)

فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال « الجنة » قال: فاشهد أنى قد تركتها له كلها .

الحديث الثالث

فى رواية عن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ « إن لله عباداً لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم » قيل ومن أولئك يارسول الله ؟ قال « متبرى من والديه راغب عنهما ومتبرىء من ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم »

الحديث الرابع

عن أبى هريرة رضى الله عنه : (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده ، ورجل حلف على سلعة بعد العصر يعنى كاذبا ، ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفى له وإن لم يعطه لم يف له ،

وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون

يخبر الله تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ليوهموا الجهلة أنه فى كتاب الله ويضيفونه إلى الله وهو كذب على الله وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله ولهذا قال الله تعالى : (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) .

* * *

وأجمع كثير من المفسرين على أن معنى : (يلوون ألسنتهم بالكتاب) يحرفونه ويتأولونه على غير تأويله . وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلها الله تعالى لم يغير منهما حرف لكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول .

قال ابن كثير : فى قول وهب بن منبه : فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك فلاشك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان فاحش . وهو من باب تفسير المعرب المعبر وفيهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد وأما إن عنى كتب الله التى هى كتبه من عنده فذلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ

قال أبو رافع القرظى

حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : قالوا أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا ؟ فقال رسول الله ﷺ ، معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله ما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى ، فأنزل الله تعالى قوله : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة — إلى قوله — بعد إذ أنتم مسلمون)

فقوله : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله) فما ينبغى لبشر أتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس أعبدونى من دون الله أى مع الله ، فإذا كان هذا لا ينبغى لنبى ولا لمرسل ، فلن ينبغى لأحد من الناس غيرهم بالأولى والأحرى ولهذا قال الحسن البصرى : لا ينبغى هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته .

وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا فأهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)

وقال عدى بن حاتم : يا رسول الله ما عبدوهم فقال : « بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين فإنهم إنما يأمرون بما يأمر به الله ، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين الله وبين خلقه فى أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق .

وقوله : (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

فالرسل يقولون للناس كونوا ربانيين ، أى كونوا أهل عبادة وأهل تقوى : (بما كنتم تعلمون عباده وبما كنتم تدرسون) فإنه حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها له أى فاهما معناه : (وبما كنتم تدرسون) تحفظون ألفاظه .

ثم قال تعالى : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) أى ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله لا نبى مرسل ولا ملك مقرب : (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) أى لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الله آلهة يعبدون)

وقال إخباراً عن الملائكة :

(ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين)

وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون

أخذ الله تعالى ميثاق كل نبى من لدن آدم إلى عيسى عليهما السلام بأنه مهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أى مبلغ ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته ولهذا قال تعالى وتقدس : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة) أى لما أعطيتكم من كتاب وحكمة : (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى) والإصر هو الميثاق الشديد المؤكد .

* * *

(قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك) عن هذا العهد والميثاق (فأولئك هم الفاسقون)

قال على بن أبى طالب وابن عمه ابن عباس رضى الله عنهما ، ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه .

« • »

وعن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟

فتغير وجه رسول الله فقال عبد الله بن ثابت إلى عمر : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟

فقال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا ، فسرى عن النبى ﷺ

وقال : « والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم . إنكم حظى من الأمم . وأنا حظكم من النبيين »

« • »

وفى حديث آخر : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق . وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى » وفى بعض الأحاديث « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى » فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى يوم الدين . وهو الإمام الأعظم الذى لو وجد فى أى عصر لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم . ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس . وكذلك هو الشفيع فى المحشر فى إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده وهو المقام المحمود الذى لا يليق إلا له . والذى يحيد عنه أولو العزم والأنبياء والمرسلين حتى تنتهى النوبة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه .

« • »

أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذى له أسلم من فى السموات والأرض أى استسلم له من فيها طوعاً وكرهاً كما قال تعالى : (ولله يسجد من فى السموات والأرض

طوعاً وكرهاً) وقال تعالى : (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله . والكافر مستسلم لله كرهاً . فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لا يخالف ولا يمانع .

* * *

وعن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً) قال حين أخذ الميثاق (وإليه يرجعون) يوم المعاد فيجازى كلا بعمله

* * *

ثم قال تعالى : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) يعنى القرآن (وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب) من الصحف والوحى (والأسباط) وهم بطون بنى إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل — وهو يعقوب — (وما أوتى موسى وعيسى) يعنى بذلك التوراة والإنجيل : (والنبيون من ربهم) وهذا يعم جميع الأنبياء جملة (لا نفرق بين أحد منهم) بل نؤمن بجميعهم (ونحن له مسلمون) فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبى أرسل . وبكل كتاب أنزل لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله . وبكل نبى بعثه الله .

* * *

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) فمن سلك طريقاً غير ما شرعه الله فلن يقبل منه : (وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقد جاء فى الحديث الصحيح : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد »

وقال رسول الله ﷺ : « تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة فتقول يا رب أنا الصلاة فيقول إنك على خير . وتجىء الصدقة فتقول يا رب أنا الصدقة فيقول إنك على خير ، ثم يجىء الإسلام فيقول يا رب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول الله تعالى إنك على خير ، بك اليوم آخذ . وبك أعطى . قال الله فى كتابه (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)

كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين ، أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم

عن ابن عباس أن رجلا من الأنصار كان قد أسلم ثم ارتد وعاد إلى الشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لى رسول الله ﷺ هل لى من توبة ؟ فنزلت (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم — إلى قوله — فإن الله غفور رحيم) فأرسل إليه قومه فأسلم

وقيل أن هذه الرواية وردت فى شأن الحارث بن سويد وأنه لما نزلت هذه الآية ذهب بها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث إنك لصدوق وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة ، ورجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه .

« • »

فقوله تعالى : (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات) أى قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ، ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية ولهذا قال سبحانه : (والله لا يهدى القوم الظالمين) ثم قال : (أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) أى يلعنهم الله ويلعنهم خلقه : (خالدين فيها) فى اللعنة (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أى لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة ثم قال تعالى : (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته أن من تاب إليه تاب عليه .

* * *

إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ، إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين

يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً أي استمر عليه إلى الممات ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات كما قال تعالى : (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت) ولهذا قال ههنا : (لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) الخارجون عند المنهج الحق إلى طريق الغي .

وعن ابن عباس أن قوما أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية : (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم)

* * *

ثم قال تعالى : (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خيراً بدا ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة ، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف . ويفك العاني ، ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قبل منه كما قال الله تعالى : (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وقال : (لا بيع فيه ولا خلال) وقال : (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم)

ولهذا قال الله تعالى ههنا (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) فعطف ولو افتدى به على الأول ، فدل على أنه غيره ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبا ،

ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً ، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ، ووعرها وبرها وبحرها .

. . .

وعن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال : فيقول نعم ، فيقول الله قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك .

. . .

وفى رواية أخرى : « يؤتى بالرجل من أهل الجنـــة فيقول له يا ابن آدم كيف وجدت منزلك فيقول : أى رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : ما اسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة ويؤتى بالرجل من أهل النار ، فيقول له يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يا رب شر منزل . فيقول له أتفتدى منى بطلاع الأرض ذهباً ، فيقول أى رب نعم . فيقول : كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار .

ولهذا قال : (أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) فما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم

عن عمر بن ميمون فى تفسير : (لن تنالوا البر) قال : الجنة .

وروى عن أنس بن مالك أنه كان يقول : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بئر . مواجهة للمسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قال أبو طلحة

يا رسول الله ، إن الله يقول : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحب أموالى إلى بئر ماء وإنها صـــدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى . فضعها يا رسول حيث أراك الله . فقال النبى ﷺ : « بخ بخ ذاك مال رابح ذاك مال رابح ، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين ، فقال أبو طلحة : افعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

* * *

وفى الصحيحين أن عمر قال : يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخيبر فما تأمرنى به ؟ قال « حبس الأصل وسبل الثمرة »

* * *

وقال عبد الله بن عمر : حضرتنى هذه الآية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فذكرت ما أعطانى الله فلم أجد شيئا أحب إلى من جارية لى رومية فقلت : هى حرة لوجه الله فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله لتزوجتها .

* * *

كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون، قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين

قال ابن عباس : حضرت عصابة من اليهود نبى الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى ، قال : « سلونى عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام ، قالوا فذلك لك ثم سألوا : أخبرنا عن أربع خلال ، أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى النوم ومن وليه من الملائكة ؟

فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه فقال : « أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله نذراً ، لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها » فقالوا اللهم نعم ، فقال : اللهم اشهد عليهم » وقال « أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله » قالوا نعم قال : « اللهم اشهد عليهم » قال : « وأنشدكم الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه » قالوا : اللهم نعم قال : « اللهم اشهد » قال : « وإن ولى جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه » قالوا : فعند ذلك نفارقك ولو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله تعالى : (قل من كان عدوا لجبريل) إلى آخر الآية .

• • •

وعن ابن عباس: أن إسرائيل عليه السلام — وهو يعقوب — كان يعتريه مرض عرق النساء بالليل ، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم ويقلع الوجع عنه بالنهار فنذر لله لئن عافاه الله لا يأكل عرقا ولا يأكل ولد ماله عرق ، فاتبعه بنوه فى تحريمه اقتداء بطريقه (من قبل أن تنزل التوراة) أى أنه كان قد حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة .

يقول الإمام ابن كثير فى هذا السياق .

أن إسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله وكان هذا سائغا فى شريعتهم فله مناسبة بعد قوله : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فهذا هو المشروع عندنا وهو الانفاق فى طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه كما قال تعالى (وآتى المال على حبه) وقال تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه) .

(هذه واحدة) . . وهناك وجهة نظر أخرى يراها ابن كثير وهى أن الله تعالى يرد فى ذلك على اليهود الذين أنكروا وقوع النسخ فى الآيات وبيان أن ما أنكروه قد وقع فإن الله تعالى قد نص فى كتابهم التوراة أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فى ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك .

في ظلال السيرة

لابن هشام

أن تعلم تفسير القرآن وتعليمه من أوجب الواجبات على كل مسلم كما أن هذا الواجب ينبغي أن يسير جنبا إلى جنب مع واجب آخر هو الالمام الكامل بسيرة النبي ﷺ لأن سيرته هي التطبيق العملي للقرآن فمتى علم المسلم تفسير القرآن وزاد على ذلك دراسة السيرة كان ذلك حظه العظيم في دنياه وآخرته

على أنه لا يمكن أبداً أن نلتقط من هنا ومن هناك تبعا للمصادفات صورا مبعثرة من سيرة الرسول بل لابد من دراسة مركزة للحياة المثاليه التي عاشها وأساليبه المختلفة في مواجهة الظروف والأحداث

وإن هناك كتبا كثيرة صدرت في هذا السبيل بعضها لازمه التوفيق والبعض الآخر لم يؤد الغرض وإن كانت مختلفة المناهج والاتجاهات وبعضها رغم ضخامته خاليا من الروح فلا يحس القارىء المؤمن نشوة الروح التي تهب من نفحات هذه السيرة العطرة ومنها ما يكاد يكون تحليلا جافا محاكيا لأساليب كتاب الغرب والمستشرقين في كتابة تراجم عظماء الناس ولكن الأمر جد مختلف بالقياس إلى حياة النبي ﷺ

ولكن أعظم ما كتب على الاطلاق قديما وحديثا هو كتاب السيرة لابن هشام

وهناك أمنية تجيش بصدر كل مسلم هي أن يعكف على المجلدات الضخمة التي كتبها محمد بن عبد الملك بن هشام والتي عرفت باسم سيرة بن هشام والتي تعتبر المنبع الأول والمعين الصافي لجميع كتاب السيرة مع امتيازها بالحقائق المجردة وذكر الآيات القرآنية التي مست حياة الرسول والتي تشع إشعاعا روحانيا لطيفا يجعل هذا الكتاب الخالد الذي وضعه بن هشام كنز الراغبين على مرور الزمان هذه أمنية عظيمة لا يتسع لها وقت الكثيرين وقد لا يؤاتي المجلد في النفوذ إلى جواهرها من بين حواشيها المطولة وأساليبها المتنوعة لذلك رأيت أن أستعين بالله في تجريد هذه المجلدات التي كتبها بن هشام تجريداً عصريا سهلا يحافظ على جوهر روح الكتاب مع تجنب التكرار والحواشي والإضافات فنأتي إن شاء الله على هذا النسق الذي سرنا فيه في تجريد تفسير الامام العظيم بن كثير

فإذا تابع القارىء أجزاء التفسير ثم قرن إلى ذلك دراسة سيرة بن هشام خسبنا هذا عند الله خدمة للاسلام والمسلمين نرجو أن يتقبلها وأن يجعلها سبحانه خالصة لوجهه

وهو المستعان

محمد لبيب البوهي